صاحب السلطان الزائل

أقبل فسلم فى صوت كأنه الهمس ، وأحسست ولم أكن عرفت بعد شيئاً من أمره روح المذلة فى صوته ؛ ومد إلى من نهض لتحيته يداً معروقة مرتعدة كأن بها استخذاء من أن تصافح الأيدى الممدودة إليه ، ونهضت فيمن نهضوا فسلمت وأنا فى حيرة من عبارات التحية توجه إليه مشفوعة بلقب « البك »

وأخذت نعته بهذا اللقب على أنه ضرب من المزاح ، فكثيراً ما رأيت بعض المازحين فى القرية ينادون بهذا اللقب رجلاً بلغت به الفاقة حداً جعله مضرب المثل فى البؤس ، وجعل لقب « البك » مضافاً إليه أكثر بلاغة فيما يتضمن من تهكم وفيما يثير من ضحك باستعماله هذا الاستعمال

ولكنى لم أر للمزاح أثراً فى وجوه الجالسين ، بل لم أر فيها إلا التزام الجد والحرص على مظهر الاحتشام والسكون ، وفهمت أن الابتسام يتقى بين الجلوس فيما يدور بينهم من حديث ، فما تكاد تنفرج الشفاه حتى تنضم فى استدراك سريع

وفى تكشفها غير محجوبة بحجب التعقيد الذى يحتاج دراسة السنوات الطوال لحل رموزه وتبين أسراره

أيها السادة : هذا ما تيسر لى أن أحدثكم اليوم فيه . وهو بعض ما نطلب به فى هذا المجمع لتيسير اللغة العربية حتى تفى بحاجات حياتنا ومطالبها . وقد أحيلت على المجمع مسألة الكتابة العربية وتيسيرها ؛ وهذه مسألة جوهرية فى نظرى ونظر الكثيرين ، فلها يزيد الناس إقبالاً على القراءة وعلى اللغة ودراستها . وأرجو لذلك أن تنال ما هى جديرة به من البحث

وأختم كلمتى معتذراً لحضراتكم عما قصرت فيه ؛ فقد كان واجباً علىّ أن أزيد فكرتى جلاء ؛ لكن الوقت لم يتسع أمامى . فلعله يتسع من بعد . ولعلنا نوفق إلى الوفاء بما يجب علينا من تيسير اللغة لتلائم حاجات العصر ، مع المحافظة على سلامتها ، والعمل على ما يزيدها حياة وقوة وجمالاً .

محمد حسين هيكل باشا

واتجه منظارى إلى هذا البك الجديد ، وأخذت أجتلى النظر إليه ، وكان كلما زدته نظراً زادنى دهشة ذلك اللقب الذى يسبغ عليه فى جد لا أثر للعبث فيه . وظللت أنظر إلى معطفه الذى تراكم عليه ما تراكم من آثار الزمن ، وإلى جلبابه الذى لم أعرف ماذا كان لونه قبل أن يعلق به ما علق من تشويه ، والذى راح يستر خروقه بأطراف ذلك المعطف الذى يعد تسميته بالمعطف وهو على تلك الحال من قبيل تسمية صاحبه بالبك ... !

أما طربوشه ، فقد اتسق فى هذا النظام اتساقاً بليغاً ، إذ كانت اسطوانته من لون وقرصه من لون آخر ، غير أن أحد جانبيه أكثر كدرة من الجانب الثانى ، وإن كانت تلك الألوان جميعاً بقايا حمرة زائلة

وعرّفنى إلىّ وعرّفنى إليه أحد الخبثاء الذى أخذ ينظر إلى منظارى ، وكأنه كان يرى فيه — كما حدثنى بذلك بعد — آلة تصوير ، وما كاد يذكر لى اسمه حتى ذهب اللغز من ذلك اللقب الذى لقب به ؛ وقلت فى نفسى : أهذا هو الذى سمعت من أخباره ما سمعت ؟

وتزاحمت فى ذهنى صور ما علمت من أنبائه ، وبرزت من بينها صورة كانت بين غيرها من الصور ، كما يكون المارد بين الأقزام . فهذا الرجل الذى أراه أمامى ، هو بعينه الذى أشعل ذات ليلة دخينة لإحدى المغنيات فى بندر قريب ، لا يعود من الكبريت كما يفعل عامة الناس ، ولكن بإحراق رقعة من الورق تركها حتى أتت عليها النار بعد أن أشعل بلهيبها تلك الدخينة . ولم تلك هاتيك الورقة بذات قيمة كبيرة ، فهى من فئة الخمسة جنيهات فحسب !

واضطجع صاحب السلطان الزائل اضطجاعة فيها بقايا الكبرياء ، ونظرت إلى وجهه فرأيت فى سحنته خيال تعاظمه الماضى ، واستكباره يحيط به خيال استخذائه الحالى ومسكنته . والحق لقد كانت نظراته مزيجاً عجيباً من العظمة والمذلة والرضاء والضجر والخجل والتبجح ، ثم كان وجهه الشاحب يذكرنى بتلك الصورة التى كانت تعلق على الجدران لحارية « الكوكايين » !

ووجهت إليه بعض عبارات التحية فرد فى هدوء واتزان وهو ينظر إلىّ نظرات من يريد أن يستوثق من صدق تحياتى ،

كأنه لا يصدق أنه اليوم أهل للتكريم بعد أن هلك عنه سلطانه . على أنه ينتمي إلى أسرة معرقة لا يزال لبعض أفرادها جاه عظيم وثراء ، وإن كان ثراؤها لا يبلغ اليوم في مجموعه عشر ما كان لها منه بالأمس . ولعل خيال ذلك الجاه الباقي في أسرته هو الذي يجعل الكبرياء تتغلب في وجهه أحياناً على الاستخذاء وإن كان الاستخذاء قديات وهو طابعه الجديد

وقدم إليه أحد الجلوس دخينة فتناولها في سورة عجيبة وفي وجهه أمارات توحي بأنه يفهم من هذه التحية أنها ضرب من إعطاء المحروم ، وعلى شفتيه ابتسامة تصور هذا المنى وتبرز ما في قرارة نفسه منه . وأيد ذلك لي إسراعه بأخراج علبة الدخائن من جيبه وتقديمه دخينة إلى من سبق فقدم إليه مثلها ، ثم إنه تقدم في خفة وظرف فيهما طيف أريحيته الماضية فأشعل الدخينة لصاحبه ولكن بعود من (الكبريت) . . .

وأردت أن يتكلم لعل الحديث يميل به إلى الإفضاء ببعض ما يقوم في نفسه من هذه الحال التي تدلى إليها بعد عزة ، ولكنه لزم الصمت ، وكان صمته أيضاً يجمع بين الحياء والاستعلاء . . .

ودخل علينا شيخ من أهل القرية فما وقعت عيناه على ذلك البك حتى أقبل عليه في اهتمام شديد وهو لا يفتأ يكرر قوله : « شرفت بلدنا يابك ! أهلاً وسهلاً يابن الأكابر . دى البلد كلها منورة بوجودك فيها ! الله يرحم والدك البك الكبير »

وأخذ ذلك الشيخ يفيض في وصف سجايا البك الكبير وأبهته وجاهه ، ويحكي في ذلك الحكايات الطويلة ، ويذكر الضياع التي عمل فيها بأسمائها ، ويقارن بين ما كانت تخرجه من خيرات هاتيك الضياع ، مستشهداً برأي البك الصغير كأنها لا تزال ملك يديه يتمتع بخيراتها جميعاً ؛ ثم تنهد ذلك الشيخ وختم حديثه في سذاجة محبوبة قائلاً : « هيه سبحان من له الدوام ! يابني ما تزعلش انت ابن الأكابر على كل حال ، وعندنا احنا يا فلاحين نقول إن دبلت الوردة ريحتها فيها »

ومضى الشيخ وأنا أفكر فيما ضرب من مثل ، وأنظر إلى تلك الوردة الذابلة فلا أحس من سابق رائحتها فيها ، ويتملكني الإشفاق حيناً ، ولكني أذكر الورقة ذات الجنيهات الخمسة وأتصورها مشتعلة في يده فينفي الإشفاق من قلبي شعور يكاد يقرب من الشماتة لولا أني أكره الشماتة ، شعور هو في الواقع إحساس خفي بعدالة الـ . . . وتطابق الجريمة والعقوبة

ولما ذكر أمامي اسم البك الكبير وذكرت ثروته الهائلة التي انتهت إليه هو أيضاً من . . . ، وموطن هؤلاء وأسرتهم الكبيرة قرية تقع . . . من قريتنا ، عجبت كيف بدد هذا البك الصغير الهائل أ . . . هذا الشيطان الكبير ثروة أبيه على هذا النحو حتى لم يبق . . . إلا الذكرى

وتكلم أخيراً صا . . . ذلك السلطان الضائع ، وكان حديث ذلك الشيخ أثار شجوه . وأخذ يصف لنا كيف كان يعيش ، وهو لا يدري أنه بـ . . . علينا قصة سفهه ! ولعله كان يحس أن لم يبق له من الثروة إلا فخاره بما كان له من ثروة ، إن كان ذلك من دواعي الفخار . ونسي سكونه الأول فأطنب وأفاض في غير تحفظ أو استحياء . ومن درر حديثه قوله : « ياما شوفنا عز ! دا الواحد كان يا . . . معه ألف جنيه إلى الإسكندرية فيعود بعد أسبوع ما فيش في جيبه غير أجرة الوابور . . . دا أنا كنت هرون الرشيدي اللي . . . عليه »

وقلت وكان ذلك . . . من إيراد أملاكك طبعاً ، فتلعثم قليلاً وقال لو كان ذلك المال من إيراد أملاكي ما ضاعت أملاكي ؛ إنما كان بعضه من الإيراد وبعضه من البنك ، وآه من البنك . . . آه من البنك !

وإذ ذكر لي البنك ذهب من نفسي كل عجب ، فكم استدرج البنك من أمثال هذا الذي ورث ما ورث فلم يشعر بقيمة ملكه حتى ذهب عنه كما جاء إليه . ثم سألته عن مصير هذه الضياع فقال أخذها الخواجه . . . تاجر القطن . وأحزنني أن يمتلك مثل خريستو من ثرى هذا الوادي أرضاً أولى بها بنوه ، أرضاً كانت تكفي لأن يعيش منها أكثر من مائتي أسرة من تلك الأسر التي تكدح صابرة في وهج الشمس وتسقي بعرق جباهها تربة واديها ولا تمتلك الواحدة أكثر من فدانين أو ثلاثة فدادين

وسألته عن شعوره إذا مر اليوم بهاتيك الضياع . ولشد ما أدهشني قوله إنه لم يرها كلها ، وأنه لا يعلم إلا موضع ما كان يحيط بقصره منها ؛ فلقد كان أمر زراعتها وتعهدها مفوضاً إلى نظاره الثلاثة الذين يمتلك الواحد منهم اليوم ما لا يقل عن ثلاثين فداناً ، من أرض أجداده

وكان مجلسنا هذا في دكان بدال . ولما هم البك بالانصراف